دور إقليم توات في التواصل الحضاري مع منطقة السودان الغربي

اعداد أستاذ التعليم العالي: مقلاتي عبد الله وطالبة الدكتوراه رحايلي حياة

رقم الهاتف : 0771408623

0671014013

البريد الإلكتروني: abdalah19@yahoo.com

rehailihayet@gmail.com

يعد إقليم توات بصحراء الجزائر الجنوبية من اهم الأقاليم نظرا لموقعه الجغرافي المتميز اذ يعد رافدا رئيسيا لانتشار الإسلام وانتقال الثقافة العربية لدول الساحل الافريقي اذ قام سكانه بدور بارز في صبغ المظاهر الحضارية للممالك الإسلامية التي قامت جنوب الصحراء (غانة مالي ، بورنو، سنغاي) هذا وقد شهد القرن الخامس عشر انفتاحا على أقاليم المنطقة ، حيث يشيد كثير من المؤرخين بدوره الحضاري والاقتصادي الذي أسهم في انضاج حركة علمية زاخرة وكان من مظاهر هذه الحركة العلمية انتشار الخلاوي العلمية وانتقال العلماء الى بلاد السودان الغربي للدعوة في سبيل الله و نشر العلم ، وقد مارس هؤلاء العلماء التعليم والدعوة ورابطوا وجاهدوا من اجل نشر الإسلام ونشر العلم ، وتحفل اليوم كتب التراجم بسجل حافل من الإنجازات العلمية والحضارية لعلماء توات ، هذا ويمثل إقليم توات العمق الاستراتيجي للجزائر في افريقيا حيث يربط الجزائر بدول جنوب الصحراء والسودان الغربي ، وبحكم هذا الموقع والازدهار الحضاري والاقتصادي الذي عرفه الإقليم فقد ساهم بدور حاسم في التعريف بالإسلام وايصاله الى ادغال افريقيا وإقامة علاقات وطيدة مع منطقة السودان الغربي ، وهذاما نحاول تناوله في هذه المداخلة اعتمادا على وثائق ونصوص اصيلة.

1. الموقع والتسمية:

يتوسط إقليم توات الجهة الغربية من الصحراء الكبرى التي ينتمي اليها وهو يتربع على مساحة واسعة، وذلك بين خطي طول أربع درجات شرقا ودرجة واحدة غرب خط غرينيتش، وبين دائرتي عرض عشرون درجة الى ثلاثين درجة شمالا، وهو ما جعله يطل على منطقة

السودان الغربي وبالتحديد على دولتي مالي وموريتانيا وهو بذلك يحتل مركزا جغرافيا مهما [1] وهو يتربع على مساحة تقارب الفي ميل مربع[2]، وينقسم الى ثلاث وحدات رئيسية وهي: قورارة أو تينجورارين ، توات ،تيدكلت .

تقع منطقة تينجورارين شمال توات محاطة بالعرق الغربي من جهة الشمال والشمال الشرقي، وبهضبة تادمايت من الجنوب والحوض الشرقي لواد سمارة من الشرق، من أهم قصورها قصور أوقروت، قصور أجريفت ، قصور تيميمون وغيرها ، أما منطقة توات الأصلية والتي تقع ما بين نهايات الهضبة العليا للقرارة والتي تكون الحافة الشرقية لواد مسعود وأهم قصورها قصور بودة ، قصور تامنطيط ، قصور تيمي ، قصور بوفادي ، أو أولاد الحاج ...، منطقة تيدكليت فيقع بين توات الاصلية غربا وهضبة تادمايت شمالا وهضبة مويدر جنوبا من اهم قصورها ، قصر أولف قصور أقبلي ، قصور عين صالح وغيرها [3] هذا وقد ظلت تنمطيط عاصمة لإقليم توات عبر التاريخ الى غاية القرن 17 م حيث انتقلت إلى مدينة أدرار أكبر مدن مقاطعة تيمي [4] .

يسود الإقليم مناخ صحراوي جاف يتميز بالحرارة الشديدة في فصل الصيف والبرودة في فصل الشتاء مع الجفاف طول أيام السنة، كما أنه يتعرض الى زوابع رملية قوية كما أن المنطقة نادرة الخضرة باستثناء بعض النباتات الشوكية [5] وعلى الرغم من هذه الطبيعة القاسية فإن الانسان عرف كيف يتأقلم معها ويستقر فيها بسبب وجود المياه الذي يعتبر شرط أساسي من شروط تعمير الانسان لمنطقة تحتوي على مياه جوفية هايلة وتستغل عن طريق حفر الأبار والأبار العميقة [6]إذ انتشرت بها تقنية الفقارات التي يبلغ عددها بضع مئات ويبلغ طول بعضها عدة كيلومترات يخضع استعمالها لقواعد دقيقة [7] .

هذا وقد اختلفت المصادر حول تسمية المنطقة ب "توات " ويمكن أن نقسم هذه الاراء في مجملها الى رأيين أساسيين بين المؤرخين المحليين والأجانب فالمصادر المحلية ارجعت الاسم الى الاشتقاق اللغوي الغربي أو العجمي للكلمة فمحمد بن المبارك يذكر أن توات أصلها أعجمية أطلقها قبائل لمتونه عندما وفدوا للإقليم ووجد أن المكان يناسبهم (يناسبهم) وكان ذلك في القرن الثاني عشر ميلادي/ منتصف القرن السادس الهجري [8]، ويروي عبد الرحمان السعدي صاحب كتاب

"تاريخ السودان "أن سلطان مالي كنكان موسى مر بتوات وهو في طريقه الى الحج فأصابه بها وجع في رجله فأطلق عليها الاسم بمعنى الوجع في لغة سنغاي [9] ويرى محمد بن عمر بن محمد المبروك البداوي في مخطوطه "نقل الروات" أن عقبة بن نافع الفهري فاتح بلاد المغرب لما وصل الى واد نون ودرعه وسجلماسة عام 62 ه سأل عن المنطقة التي بعدها (أي توات) هل هي مواتية بنفي الحرميين والعصاة إليها فوافقوه فسميت بذلك [10] أما محمد بن عبد الكريم البكراوي فيرى في درة الأقلام "أن القائدين علي بن الطيب و الطاهر بن عبد الحرمن الموحدين كان يقبضان الأتوات عن أهل المنطقة عام 595ه فعرف أهلها بأهل الإتاوات، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فصارت الألسنة تنطقها توات [11] " أما مولاي أحمد الادريسي الطاهري فيرى في كتابه "نسيم النفحات أن سبب تسمية المنطقة بهذا الاسم كونها منطقة تواتي العبادة [12]" .

أما الأستاذ بوساحة فيرى أن كلمة توات في اللهجة البربرية تسمية جغرافية تطلق على الأماكن المنخفضة [13].

أما المؤرخون الفرنسيون فقد حاولوا الاستعانة بالدراسات الاثنوغرافية في تأصيل اسم توات، ومنهم المؤرخ Martin الذي يرى بأن كلمة توات مركبة من "وا" وهي مفردة اغريقية من وازيس oasisبمعنى الواحة ويتطابق مع المصطلح البربري "وا" "oua" الذي هو تعبير عن جمع مفردة توات "touat" بمعنى الواحة وبهذا فهي تعني البلد [14] ويضيف Mandeville الى ذلك أن اسم توات أطلقه البربر التوارق على مجموعة الواحات التي تنتشر بالمنخفض العميق لواد الساورة ووادي مسعود [15] أما الباحث Raclus فيرى أن توات معناها الواحة [16] وهذه الروايات قريبة الى الصحة باعتبار أن باعتبار أن القبائل البربرية المعروفة بالمسلمين (التوارق -لمتة – لمتوتة) هي أول من سكنت الإقليم ولا يعقل أن يسكن منطقة دون أن يعطي اسما مشتقا من لغتها البربرية كما أن أغلب أسماء مناطق الإقليم بربرية وتبدا بحرف التاء وهذا ما ينطبق على توات ، وتدعم المصادر التاريخية الفرنسية والمحلية هذه الآراء، فقد ذكر الرصاع في فهرسته مثلا ان توات اسم لاحد البطون المنحدرة من قبيلة الملثمين سكان الصحراء والمسلمين هم قبائل الصحراء بالجنوب عرفوا بهذا الملثمين سكان الصحراء والمسلمون هم قبائل الصحراء بالجنوب عرفوا بهذا الاسم لانهم يتلثمون بلثام أرزق ، ومنهم أزرق ، ومنهم طوائف التوارق ولمته ولمتونة و التوات [17].

هذا وقد جاء وصف توات بمناطقه الثلاثة في المصادر القديمة وكتب الرحالة مما يدل على قدم تعمير المنطقة وعلى أهميتها ، فيذكر هيرودوت أن تعمير هذا المكان من الصحراء يعود الى قبائل الجيتول البربرية التي سكنت قورارة ، وقد ذكر المؤرخ مارتان Martin أن فترة الجيتول امتدت الى غاية السنة المائة بعد الميلاد ثم فسح المجال أمام توغل اليهود الذين سيطروا على المنطقة في الفترة الممتدة ما بين 100و600 م ثم مد البربر من فرع زناتة نفوذهم على الإقليم في الفترة مابين 600 و 1147 م لتأتي بعدها مرحلة استقرار الاسر العربية والبربرية التي استقلت بحكم الإقليم وقد كان الإقليم مواليا للدولة الزيانية وللدولة العثمانية ، وتعرض للاحتلال المغربي المتقطع منذ القرن السادس عشر الميلادي[18].

هذا وقد ضمت التركيبة السكانية للمنطقة ثلاث أصول رئيسية وهي: البربر وهم السكان الاصليون في شمال افريقيا كانوا أول من سكن الإقليم واستقر به أهم قبائلهم الملثمين وهم احدى فروع صنهاجة [19].

أما العرب فتوافدت هجراتهم للإقليم في شكل تجمعات وهجرات فردية طلبا للأمن والاستقرار وكذا الزنوج ويعتبرهم الباحثون من أقدم العناصر وترجع في أصولها الى تلك الشعوب التي عاشت في فترات فجز التاريخ.

تشير بعض المصادر الى فرضية وصول الفراعنة والبربر الجيتول الى توات قديما كما أشار الى ذلك هيرودوت ويؤكد الرحالة ابن حوقل في كتابه "صورة الارض " ان البربر هم سكان الإقليم القدامى حيث قال "وبين بلاد السودان وارض المغرب سكان ممن البربر ومفاوز وبراري منقطعة، قليلة المياه متجذرة المراعي "[20].

إن اقدم القصور التي بنيت في توات تؤرخ الى عصور قديمة جدا نسبها المؤرخون الى القبائل البربرية الأولى التي قدمت الى المنطقة وهم الجيتول ثم استمر توافد القبائل البربرية الأخرى التوارق واللمتونيون ثم الزناتيون في منتصف القرن 12 بعد قيام دولة الموحدين ومانتج عن ذلك من تعقبهم للفرع الزناتي مما دفع بقبيلتي مغراوة وبني يفرن بعد مقتل أميرهم مسعود بن وانوديت المغراوي للخروج الى الصحراء حتى وصلوا ناحية تكورارين ووادي الحناء بالإقليم التواتي [21] ، ويشير ابن خلدون الى استقرار الملثمين في توات وان كانت كثير من الروايات تؤكد

هذا الاستقرار فان قبائل التوارق ما لبثت أن انزاحت منذ القديم الى الجنوب باتجاه الهقار نتيجة تعرض قبائل تيدكلت لها [22].

ونزحت القبائل اللمتونية الصنهاجية الى قورارة وتمنطيط حيث يذكر صاحب "القول البسيط" أنهم هم أول من بنى قصر تمنطيط [23].

وقد دخلوا في منافسة مع الزناتيين الذين ظل نفوذهم قويا في الإقليم وسيطرت قبائل أولاد عبد الجليل وذكوان وأولاد عليش على مناطق واسعة في الإقليم، واستمر نزوح القبائل البربرية والعربية على السواء طيلة القرن الثالث عشر ميلادي [24] حيث لجأت العديد من العائلات الشريفة الى توات هروبا من الاضطهاد التي تعرضت له في المغربين الأوسط والاقصى كما حلت قبائل عرب المعقل بالمنطقة للسبب ذاته فجاورت زناتة وخدمتها.

ولجأت الى توات كذلك قبائل ذوي منصور التي استوطنت قورارة ، وبعض فروع البراريش وفروع من قبيلة كنتة بالإضافة الى قبائل عربية وبربرية أخرى مثل الشعانبة والفلان والبرامكة ....الخ ، وقد تعايشت هذه القبائل مع بعض لتشكل مجتمعا متجانسا ومتحالفا من أجل محاربة الاخطار المشتركة [25].

ويضاف الى العنصرين العربي والبربري عنصر الزنوج الافارقة القادمين من الجنوب باختيارهم أو اضطرارا ويبدوا أن الدوافع الاختيارية كانت كثيرة ومنها التجارة والعمل في الزراعة وحفر الفقاقير ومنها طلب العلم والبحث عن الامن والاستقرار وهكذا تشكلت مع مرور الزمن طبقة الزنوج في المجتمع التواتي [26].

ما عرف الإقليم توافد اليهود الذين هاجروا اليه من جهات مختلفة: الشام، الحجاز، مصر اليمن والحبشة، وذلك بعد طردهم واضطهادهم من الاندلس وصقلية[27].

اذن فان إقليم توات قد عرف توافد خليط من الاجناس وذلك بسبب رحابة أهلها وحسن موقعها وأمنها، كل هذا أسهم في ثراء الإقليم وتنوع ثقافته.

-علاقة إقليم توات بإفريقيا الغربية:

بداية قبل الحديث عن علاقة إقليم توات بإفريقيا الغربية أو منطقة السودان الغربي يجب تحديد المصطلحات وضبط موقعها جغرافيا، فالسودان الغربي أو غرب افريقيا فالسودان الغربي أو غرب افريقيا يجمع الرحالة العرب على أنها البلاد التي يحدها المحيط غربا وحدود بلاد الحبشة الغربية شرقا، إذا فهي تمتد حسب هذا المفهوم من الساحل السنغال حتى حدود نيجيريا الشمالية، ونقطة ارتكازه هي حوض السنغال وحوض نهر النيجر الأعلى والاوسط[28].

إذن فهو يحتل منطقة استراتيجية في القارة الافريقية فهو يربط الشمال بالجنوب والصحراء بالغابات الاستوائية، وقد اشتملت مناطقه على خيرات كثيرة ومتنوعة وعلى معادن نفيسة كالذهب والعاج، كما راجت بها تجارة الرقيق.

وهو ما جعل التجارة تؤدي دورا مهما في ربط الصلات بين شعوب شمال افريقيا وبلاد السودان الغربي، اذ كان لغنى المنطقة وانتاجها المتنوع أثر على اجتذاب التجار المسلمين الذين عمروا على ترويج هذه البضاعة حيث ذكر الادريسي ان غانة وهي احدى الممالك السودانية كانت تجارتها رائجة مع مغاربة شمال افريقيا "وهي أكبر بلاد السودان قطرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا واليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها ومن سائر بلاد المغرب الأقصى وأهلها مسلمون "[29].

هذا وقد ازدهت العلاقات التجارية بفضل القوافل الصحراوية التي تنطلق من تلمسان وحواضر الشمال الأخرى باتجاه السودان الغربي وذلك مرورا بتوات التي تحولت لمركز عبور رئيسي تتجمع فيه القوافل القادمة من ورقلان وغرداية والأبيض سيدي الشيخ وسجلماسة تنطلق منه الى حواضر السودان المختلفة "ولاتة ، تمبكتو، مالي ، النيجر ، نيجيريا ..... "[30]

وتجدر الإشارة هنا الى أن جل القصور والمدن التواتية نشأت أصلا عن القوافل التجارية العابرة للصحراء قاصدة الأسواق الرئيسية، بذلك كانت هذه المراكز أماكن لتلبية حاجيات أصحاب القوافل واخذ قسط من الراحة فيها [31].

هذا وقد حاز إقليم توات مكانة هامة في المبادلات التجارية التي ازدهرت في القرن الرابع عشر الميلاد لأهمية موقعه ، فهو المعبر الرئيسي لتجارة السودان الغربي ولبعض بلدان المغرب ، قال عنه ابن خلدون "وطن توات وهو وطن مستبحر في العمران وهو ركاب التجار الى مالي

....ولا يمر الوارد الا بالدليل الخريث من الملثمين الظاغت في تلك القفر يستأجره التجار على البذرقة بهم بأوفى الشروط[32]" .

وزاد حسن الوزان الذي زار منطقة قورارة في القرن الخامس واصفا أوضاع السكان الاقتصادية بالقول "وسكان هذه البقعة اغنياء لان عاداتهم الذهاب كثيرا مع بضاعتهم الى بلاد السودان، حيث يجنون أرباحا كثيرة وهنا يقع رأس خيط القوافل حيث ينتظر تجار بلاد البربر تجار بلاد السودان ثم يذهبون سوية "[33].

هذا وقد حدث الاحتكاك الحدودي بين منطقة توات والممالك كلواته وسنغاي تقاربا وارتباطا وثيقا بين توات والسودان الغربي في مجالات شتى فكانت القوافل التجارية تسير باستمرار بين توات ومالي وتمبكتو وكانت المصنوعات الجزائرية تجد رواجا لها في بلاد السودان في حين تنقل قوافل تجارة الرقيق والذهب للأسواق الجزائرية ويذكر ابن بطوطة أن التواتيين أصبح لهم وكلاء في كامل مدن السودان الغربي وأن هناك أحياء خاصة في تمبكتو يسكنها تجار توات ووكلاءهم[34].

وخلال القرن السادس عشر كان خط التجارة تحول من السوس ولاتة الى الشرق واحتلت توات المركز الرئيسي في وصل تجارة المغرب العربي بالسودان ولم تعد تضاهي مكانتها اية مدينة صحراوية بما في ذلك غدامس وورقلان[35] .

هذا وقد أدى ازدهار النشاط التجاري والاقتصادي في منطقة توات الى جعلها منطقة جذب للتجار والعلماء خلال العهد الوسيط الذين كان لهم دور فعال في تطور الحركة العلمية ونبوغ الكثيرين في ميدان تخصصهم ومواكبتهم للحياة الفكرية والثقافية التي كانت تعيشها مراكز العالم الإسلامي الثقافية في المغرب والمشرق العربيين ، هذا وقد أصبحت توات قبيلة للعلماء الوافدين من تلمسان وفاس ونذكر من بينهم على سبيل المثال ابي يحيى المنياري ، يحي بن يدير التداسي عبد الله ابن ابي بكر العصنوني الشيخ ، عبد الكريم المغيلي ، الشيخ مميون بن عمروبن الباز"[36] .

لقد رافقت الحركية التجارية حركية علمية نشطة وكان طبيعيا أن يكون للتجار التواتيين دور في الدعوة للاسلام وثقافته بواسطة الرحلات العلمية وتبادل الوفود ولقاءات مواكب الحج والاجتماع حول الطريقة الصوفية [37].

-التواصل الحضاري بين إقليم توات والسودان الغربي:

اتخذ التواصل الحضاري بين إقليم توات والسودان الغربي شكلين هما رحلة العلماء واستقرار الجالية التواتية بالسودان، إذ كان لعلماء توات رحلات علمية في الفترة ما بين 8 ه - 10ه/14م -16م وتعد رحلة الشيخ عمر بن محمد بن عمر والبازي ت 872ه /1468 م أقدم الرحلات التي قام بها علماء توات ، إذ نزل بولاتة ودرس بها واستزاد من علماءها [38]

لقد لعلماء توات دور متميز في نقل الاشعاع الثقافي الإسلامي الى الشعوب الافريقية وفي تشييد صروح التمدن والحضارة ، إذ يؤكد أغلب المؤرخين على دورهم الفعال في نضج وقوة الممالك الإسلامية التي عرفتها افريقيا الغربية بدء من القرن الخامس عشر ، وفي عهد ازدهار الحضارة الإسلامية انتشرت المدارس بفضل جهود علماء توات الذين تميزوا عن أقرانهم بحركيتهم النشطة وتعايشهم مع السكان الأصليين[39] هذا وقد انتظمت الرحلات التواتية على هذه المنطقة بعد ان بعث ملك بورنو كاندي ولد جامشاس 1440م/1447م -843ه/ 851ه الى بعض العلماء البارزين للقدوم الى بلاده ويؤكد لهم أنه سيسهر على امنهم وراحتهم وأنه لن بأخذ منهم أي ضرائب ،خاتما رسالته بالقول "إن البلد بلدكم مثلما كان لأباءكم من قبل[40] ".

وتوضح لنا مختلف الأدبيات أن هجرة علماء توات الى السودان الغربي كانت مبكرة حيث تجند بعضهم للدعوة في سبيل الله وأسهموا في نشر الإسلام والثقافة العربية لكن لم يكتب لهم النجاح الذي حققه الشيخ المغيلي هناك ، والذي طغت سمعته على من سبقوه في الدعوة قبل القرن 15 م إذ بعد من العلماء المرموقين في عصره إذ اشتهر بعلمه الواسع ومواقفه السياسية الصارمة ونشاطه الإصلاحي المجدد،حارب اليهود الذين استبدوا واستكبروا في توات ،ورأى بعدها أن ينتقل الى السودان الغربي لنشر الإسلام والقضاء على البدع والوثنية وقضى وقتا طويلا هناك في الدعوة والإصلاح، إذ خلف هناك تلامذة وأتباعا انتهجوا نهجه وهكذا أصبح له حضور قوي في أقطار السودان الغربي والذي يدل المكانة اتي حازها علماء توات والجزائر في تلك البقاع[41].

هذا وقد استقبله أمير كانو وأكرمه حيث جلس الامام المغيلي للتدريس ونشر دعوته بين السكان وتقديم المشورة لأمير البلاد أصير ومنها الى بلاد واكشن ووصل الى مملكة سنغاي التي

كانت عاصمتها غاو، وقد أكرمه أميرها محمد أسكيا وجالسه وتأثر بأفكاره الإصلاحية واستسقاه في سبعة مسائل اجابه المغيلي عنها في رسالة سماها "أجوبة المغيلي واسئلة الأسقيا "[42].

لقد كان الهدف الأساسي من انتقال المغيلي الى السودان هو نشر الدعوة الإسلامية اذ دعا الحكام صراحة أن ينهضوا بمحاربة البدع والخرافات والاحتكام الى شرائع الدين الإسلامي، كما تجند لدعوة الوثنيين لدخول الإسلام وتضمن رسائله ووصاياه للمراء والسلاطين دعوة صريحة لإصلاح اوضاع المجتمع وطبعه بالطابع الإسلامي اذ وصى سلطان كانو قائلا "وامنع جميع اهل بلدك عن جميع أنواع الشرك وكشف العورات"[43].

وتذكر بعض المصادران رحلات المغيلي في بلاد السودان الغربي استمرت من سنة 1480 م الى سنة 1502م[44] ، ومدة عشرين سنة هذه كانت حافلة بالأعمال والمنجزات التي صبغ بها وجوده في الممالك الافريقية وترتبت عنها أثار بالغة الأهمية خاصة ما تعلق بترشيد الحكم في الامارات الافريقية الإسلامية .

نزل المغيلي أولا بمدينة اكدز واسس بها مسجد الكرامة ثم رحل الى تكدة حيث درس بها ونفع علماءها وانتقل الى كشدة حيث تولى بها قضاء الجماعة الى جانب التدريس، ثم توجه الى كانو حاضرة امارة محمد رومنغا وفيها استقر مقامه، وقد قربه السلطان اليه وجعله مستشاره ووزيره، يرجع اليه في كل الأمور التي تواجهها مملكته، وقد وضع له المغيلي رسالته المشهورة في احكام السلطة والمتضمنة خلاصة أحكامه واجتهاداته ونصائحه المنسجمة مع الخصوصيات الافريقية في السياسة والامارة [45].

هذا وقد توطن المغيلي بكانو وبنى مدرسته الشهيرة بمدرسة الشيخ المغيلي والتي اصبح يدرس بها طلابه الوافدين من مختلف الأقطار السودانية وتخرج على يده مشايخ كثر ضاع صيتهم وشاعت أخبارهم [46].

ولان المغيلي عرف كيف ينفذ الى قلوب هؤلاء الحكام والامراء فإن مشروعه الإصلاحي سرعان ما سرى بين العامة وتقبلته الانفس، وهكذا ظلت بصمات واجتهادات المغيلي في ترشيد الحكم السياسي سيدة الموقف، إذ اغترف المصلح والزعيم عثمان بن فوديو احكامه في سياسة دولة

الفلان الحديثة وتتجلى أفكار وأراء المغيلي السياسية بوضوح في بلاد الحوصة التي افتتحها بدعوته وترك فيها تلاميذ حافظوا على نهجه الإصلاحي ونقلوا أفكاره الى الأجيال المعاصرة [47].

هذا وقد فتح المغيلي طريق افريقيا أمام الدعاة فتعودوا على زيارة الأقاليم السودانية والمكوث بها لتدريس العلم وإمامة المسلمين ونشر الإسلام وتحفل كتب التراجم بذكر الكثير من اؤلئك الذين اشتهروا في مجال التدريس والامامة بتمبكتوا، وأولئك الدعاة المجتهدين في أدغال افريقيا من أجل نشر رسالة الإسلام.

فقد حضي علماء توات الذين انتقلوا الى السودان الغربي بحفاوة بالغة ولم يكن المغيلي وحده من حضي بالتكريم والاشادة وقد رحب ملك برنو "كداي " بالشيخ محمد الطاهر الفلاني وولاه خطة السلطان [48]، ويذكر عبد الرحمن السعدي أن كثيرا من علماء توات استقروا في تمبكتوا ومنهم الشيخ أبا القاسم التواتي الذي كان محل احترام وتقدير الجميع حتى السلطان اسكيا الحاج موسى كان يحرص بعد كل صلاة على الملاقاة به للتسليم عليه والتبرك به[49].

هذا وقد نقلت العديد من المخطوطات الى بلاد السودان الغربي من طرف العلماء التواتيين وأنشئت المدارس والرباطات وبذلك شاركوا في إرساء نهضة علمية بمختلف الحواضر التي زاروها ودرسوا بها، وحاز التواتيون نتيجة ذلك على مكانة مرموقة بين الافارقة وحاز التواتيون نتيجة ذلك على مكانة مرموقة بين الافارقة بوصفهم حملة رسالة ودعاة في سبيل الله كما تبوؤوا مكانة مرموقة كمستشار السلطان وقائد ركب الحج، والفقيه والصوفي..... [50] .

هذا وقد اشتهر علماء توات بتدريس علوم الدين واللغة والتصوف والزهد وعرف علماء السودان بنبوغهم وريادتهم في مختلف العلوم وقد خلفوا في تلك البلاد تلاميذ ينشرون فكرهم وكثيرا من مصنفاتهم المخطوطة التي ما تزال الى اليوم محفوظة في خزائن ومكتبات مالي والنيجر وغانا ونيجيريا وموريتانيا، إذ يصل عدد المخطوطات في مكتبة أحمد بابا التمبكتي بمالي مثلا الى 127 مخطوط[51] .

وابتداء من القرن الخامس عشر ميلادي اصبح إقليم توات مركزا أماميا لنشر الإسلام في السودان الغربي لا يقل شيئا عن المراكز الحضارية ومنذ ذلك الوقت و التواتيون ينهضون بدور بارز في نقل الإسلام وحضارته الى حواضر غرب ووسط افريقيا، ولم يقتصر الامر على القيام

برحلات علمية بل استقروا أفرادا وجماعات في تلك الحواضر، وحاز علماء توات على مكانة مرموقة في تمبكتو التي شهدت بفضلهم ازدهارا علميا جعل منها عاصمة علمية للسودان الغربي، وقد تداول على امامة المدينة الكثير من العلماء والفقهاء منهم الفقيه أبو الانوار بن عبد الكريم التنلاني الذي استقر فترة يعمل في الإفتاء والتدريس والشيخ الحسن بن سعيد البكري والشيخ محمد بن أحمد الذي أمضى حياته يعمل مفتيا ومدرسا ببلدة زوات شمال تمبكتوا [52]،واستقر علماء توات بغاو الواقعة شمال مالي والتي كانت عاصمة لمملكة سنغاي [53].

هذا وكان للطرق الصوفية دور هام في نشر تعاليم الإسلام وتعليم مبادئه بين أوساط السكان في كثير من حواضر افريقيا الغربية[54] ، اذ نقل شيوخ كنتة للطريقة القادرية للسودان إذ كان لهم زيارات متكررة لبورنو حيث اسسوا مدينة مبروك التي صارت مركز لنشر القادرية ، كما قام الشيخ المختار الكبير بدور فعال في نشر الصوفية القادرية في المنطقة [55] .

وانتشرت الطريقة الرقادية انطلاقا من زاوية كنتة في أقاليم التكرور حيث تذكر كثير من الروايات التي أوردها الشيخ مولاي التهامي العيثاوي أن وفدا من حاضرة أروان جاء الى زاوية كنتة وطلب من شيخ الزاوية سي علي بن الشيخ أحمد الرقادي أن يرسل معهم مرشدا ومعلما فكلف الشيخ سيدي امين الرقادي أن يرسل معهم، ونزل عند قبيلة أولاد أحمد أقادة يدرس وبرشد الى أن توافاه الله [56] .

وقد نهض الشيخ الحاج عمر الفوتي التكروري (1210ه-1795ه) بجهود معتبرة في نشر الطريقة التيجانية في غرب إفريقيا [57] ، ولم يقتصر دور التيجانية على الجانب الديني والاجتماعي بل تعداهما الى الجانب السياسي، إذ ظهرت العديد من الدويلات التي استندت الى دعوتها مثل الحاج عمر (1798م- 1865) ودولة الشيخو أحمد (1815-1852) واسهمت بذلك الطريقة التيجانية في نشر الاسلام والثقافة العربية على نطاق واسع في غرب ووسط افريقيا .

هذا ولم تقتصر هجرة التواتيين الى منطقة السودان الغربي على الافراد من علماء ومفتيين بل تعدى الامر ذلك إلى هجرة الجماعات والاسر للاستقرار في المنطقة، وبذلك أسهمت بدور فاعل في نشر الإسلام والثقافة العربية.

هذا وقد هاجرت من توات العديد من القبائل لعل أهمها واشهرها قبيلة كنتة التي لها دور بارز في نشر الإسلام بإفريقيا، والتي وصلت الى السودان الغربي حوالي القرن 9ه/15م وكان لها الفضل في نشر الطريقة القادرية اذ انتشر دعاة هذه القبيلة في المنطقة يدعون أهلها للدين ويزودونهم بالعلم [58] .

كما اهتم الكنتيون بالتجارة واشتغلوا بها فسيروا القوافل من توات وسجلماسة الى تمبكتو وقاو ودندي كاستينا وبرنو وماوراءها من بلاد السودان وممالكه [59]

هذا وقد انشأ الشيخ المختار الكثير من المدارس في منطقة منحنى نهر النيجر وموريتانيا والصحراء لنشر الإسلام والطريقة القادرية وكان يقوم بجولات تبشيرية يطوف فيها البلاد الواقعة ما بين المحيط الأطلسي في الغرب وجمهورية النيجر في الشرق، وما بين وادي درعة وتوات في الشمال وما وراء نهري السنغال والنيجر في الجنوب [60] .

كما ادخل سيدي احمد البكاي الكنتي القادرية الى السنغال في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وفي حين سجل المغيلي دوره في نشر الطريقة في وسط افريقيا الغربية دوره في نشرها في القسم الغربي من السودان [61] .

هذا ولا تزال الطريقة القادرية البكائية تتواجد في السنغال الى اليوم ولا تزال الزعامة فيها للكنتية، وكان للقادرية دور متميز في نشر الدعوة الإسلامية عن طريق التعليم والتلقين العلوم لأبناء المنطقة، وقد برز منهم العديد من العلماء والفقهاء والكتاب، وخلال القرن التاسع عشر كانت الجماعات القادرية تسيطر على الحياة الروحية والفكرية في نواحي افريقية الغربية بفضل حيويتها وتبسيطها لمفاهيم الدين الإسلامي أقبل الناس على طريقتهم وازداد نفوذهم الروحي في منطقة السودان الغربي.

وتعتبر هجرات الفولاني كذلك من الهجرات المهمة الى السودان الغربي إذ يعتقد أنهم تدفقوا إلى المنطقة بعد سقوط غرناطة عام 1492 م إذ يعد الشيخ عثمان بن فودي أول من جمع شماهم ووحدهم في القرن الثالث عشر هجري / التاسع عشر ميلادي [62] .

وقد استوطن قبيلة فلان بلاد شنقيط وانتقلت بعض فروعها جنوبا الى بلاد مالي والتكرور والسنغال واستوطنت هناك وانشئت العديد من القرى والمدن [63]، ويمثل الفلان اليوم أكبر تجمع

سكاني في غرب افريقيا، وقد عرفوا في التاريخ بلقب الشعب الدعاة للإسلام إذ حملوا الإسلام من موطنهم بالسواحل الأطلسية الى داخل العمق الصحراوي حتى وصلوا بحيرة التشاد وهو اليوم منتشرون في ثمانية عشرة بلدا وتتركز تجمعاتهم الكبرى في نيجيريا والسنغال وغينيا ومالي والكامرون والنيجر والسودان ويرثون تقاليد أجدادهم الحضارية أولئك الذين نشروا الإسلام وأقاموا دولة الفلان وواجهوا القوى المسيحية الاستعمارية [64] .

ساد حكم الفولان في بلاد الهوسا منذ عام 1811 وأقاموا مراكز عديدة في طول البلاد وعرضها انطلقوا منها الى لشن هجمات ضد القبائل الوثنية وهكذا خضعت لهم مناطق واسعة من افريقيا الوسطى [65] .

وتعتبر حركة الشيخ عثمان بن فوديو حركة إصلاحية إسلامية انتهجت خيار الدعوة ورفعت راية الجهاد وبذلك مكنت لنفسها بإنشاء امبراطورية واسعة في السودان الغربي واعالي السنغال وبلاد الهوسا منذ القرن التاسع عشر ميلادي.

وقد ارتبط مؤسسوا الدولة الفلانية بعلاقات وطيدة مع علماء الصحراء الجزائرية مع الكنتيين خصوصا، كما أن هناك فروعا من قبائل الفلان استوطن إقليم توات وارتبطت بصلات قوية مع هذه الدولة.

هذا وقد استقرت العديد من الاسر الفلانية بمنطقة توات وتركزت تجمعاتهم بمنطقة زاغلوا وقصر تيمادنين ومنطقة تيدكلت حيث اشتهرت عائلتي بن مالك وأولاد بلعالم وقد أسست العائلتين مدرسة بساهل اقبلي [66]، ونبغ العديد من العلماء الفلان بمنطقة ساهل أقبلي وساهموا في نقل العلوم والمعارف الى بلاد السودان وتشير كثير من الكتابات بجهود أولئك الذين أثروا في السودان ، سوآءا من خلال زياراتهم الى تلك البلاد أو تدريسهم للطلبة السودانيين ومنهم الشيخ محمد الحسين بن محمد بن الحاج أحمد الفولاني والذي قضى فترة في مالي يدرس ويجتمع بعلمائها ، كما نذكر كذلك الشيخ عبد الرحمن السكوتي الذي ارتبط بعلاقات صداقة مع علماء وأعيان ازواد وقام بجهود دعوية حثيثة في ورقلة وعين صالح والسودان [67] ، ومن العلماء الفلانيون الذين انتقلوا من ساهل الى افريقيا الغربية نذكر العالم محمد بن محمد بن مالك والذي عين ببلدة اودان مفتيا ومدرسا

ومحمد عبد القادر بلعالم القبلاوي الذي كانت له اتصالات مع فقهاء تيمادنين وفقهاء أل الشيخ لكبير بأزواد [68] .

وعلى ضوء ما سبق نخلص الى أن العلماء التواتيين نبغوا في مختلف العلوم وذاع صيتهم في الافاق إذ قاموا بدور بارز في نشر الإسلام والثقافة العربية، وأدوا أدوارا هامة في نقل المؤثرات العربية الإسلامية الى المناطق التي وصلوا اليها بعد اختلاطهم مع السكان وامتزاجهم وتصاهرهم معهم.

الخاتمة:

من هنا نستخلص أن إقليم توات يعد بحق من الروافد الهامة لانتقال الإسلام والثقافة العربية الى اقطار السودان الغربي، وقد ظهرت أهميته خلال القرن الخامس عشر ميلادي وفي لحظة تاريخية حاسمة وذلك بفضل مكانته التجارية الدولية وكذا حيوية علماءه وصبرهم وخبرتهم في أداء رسالتهم الحضارية.

وقد وقفنا على معالم التأثيرات التي أحدثها الإقليم في منطقة السودان الغربي والتي كان منها انفتاح علماء توات على الأقاليم الافريقية وهجرة بعض القبائل هناك كقبيلة كنتة والفلان والتي كان لها بالغ الأثر في نقل ونشر تعاليم الدين الإسلامي في المنطقة وصبغ عليها كثير من مظاهر الثراء الحضاري والتلاقح الثقافي.

[1] لقد نوه الرحالة والمؤرخون القدامى بأهمية موقع توات انظر مثلا الحسن الوزان (ليون الافريقي) : وصف افريقيا ،تر: عبد الرحمن حميدة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 2005 ، صر 505 .

[2] ابن بطوطة ، تحفة الأنظار غرائب الامصار وعجائب الأبصار ، مطبعة واد النيل ،القاهرة، ج2 ،ص299.

[3] محمد حوثية ، توات والأزواد ، خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة (الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي) دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية ، ج 1 ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع و الترجمة ، الجزائر ، 2007 ، ص 28 -36

[4] فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين 18 و 19 ، د م ج ، الجزائر ، 1984،ص7.

[5] سالمي زينب، الحركة العلمية في إقليم توات خلال القرن 8و10 هجرية، رسالة ماجستير، نوقشت بقسم التاريخ وعلم الأثار، جامعه تلمسان ،2012، ص ر.

[6] محمد عبد الكريم، الشبكة العمرانية لإقليم توات بولاية أدرار أليات التنظيم والأداء المجالي، رسالة ماجستير في الجغرافيا والتهيئة العمرانية، كلية علوم الأرض والكون، جامعه وهران 2، 2016 ، ص 22.

[7] إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ،1983، ص23.

[8] قومي محمد، دور الطائفة اليهودية بتوات خلال القرنين 9ه -10ه /15م16م، رسالة ماجستر، نوقشت يقسم التاريخ، جامعه وهران، 2014، ص 58.

[9] محمد عبد الكريم البكراوي، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الأسلام، مخطوطة خزانة أبناء عبد الكبير، المطارفة، ص 3 .

[10] محمد بن محمد البداوي، نقل الروات عن من أبدع قصور توات، مخطوط بزاوية سيدي حيدة بودة، ص 5.

[11] محمد بن عبد الكريم البكراوي، المصدر نفسه، ص3.

[12] مولاي أحمد الطاهري، نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات، مخطوطة بخزانة كوسامة، أدرار، ص 12.

[13] قومي محمد، المرجع السابق، ص59.

[14] Martin (AGP) :LES oasis sahariennes , ALGER ; 1908.P115

[15] Mandeville :l'Algérie méridionale et le toual ;paris ,1998 ,p08

[16] Reclus ELISEE ,Nouvel Géographies universelle. paris .1886. T11 . P845

[17]. محمد الأنصاري فهرس الرصاع ، تحقيق محمد العنابي ، المكتبة العتيقة ، تونس ، د ت ،ص 27

[18] LES oasis sahariennes. ALGER ; 1998, P 56 Martin (AGP)

[19] سالمي زينب، المرجع السابق، ص ث

[20] ابن حوقل، صورة الأرض، طبعة بريل، ليدن ،1938، ص 83

[21] ابن خلدون، عبد الرحمن ديوان المبتدأ والخبر، ط7 ، بيروت ، ج 7 ،ص ص 117-118

[22] عبد الله عباس، الدور الحضاري لإقليم توات وتأثيراته في بلاد السودان الغربي، رسالة ماجستير، نوقشت بقسم التاريخ، جامعه الجزائر ،2001 ، ص ص 42-43

[23] ابن بابا حيدة، القول البسيط في أخبار تمنطيط ، تحقيق فرج محمود فرج ،ط 1، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1984،ص 1.

[24] محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، تقييد حول تاريخ تمنطيط وتوات، مخطوط بالخزانة البكرية بتمنطيط ، ص 5-6 .

[25] من أهم الفروع التي ذكرتها بعض المصادر المحلية نذكر قبيلة أولاد بن عبد الجليل عام 501 ه /أولاد عباس عام 502ه / أولاد خير الله عام 516ه /أولاد حسين عام 528ه/أولاد بن سليمان عام 513ه/ قبيلة ذكوان عام 536ه /شرفاء الحموديين وأولاد أحمد عربي عام 550 ه / أولاد عبو عام 609ه /أولاد الصابون عام 640ه /البرامكة عام 656ه / أولاد الصابون عام 640ه / البرامكة عام 656ه / أولاد عثمان عام 660ه أولاد علي عام 693ه / المحاجب عام 676ه/ قبيلة أحزرم عام 698ه

[26] فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص 132

[27] قومي محمد، المرجع السابق ،ص 74-75

[28]عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، شوقي الجمل، دراسات في تاريخ غرب افريقيا الحديث والمعاصر ،د د ن ، القاهرة ، 1998 ، ص5

[29] محمد الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، ج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002 ،ص23

[30] بشاري لطيفة، التجارة الخارجية للمغرب الأوسط في عهد امارة بني عبد الواد من القرن السابع الى القرن العاشر هجريين، رسالة ماجستير نوقشت بقسم التاريخ، جامعه الجزائر، 1986، ص 89-90.

[31] سالمي زينب، المرجع السابق، ص 32

[32] ابن خلدون، عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدا والخبر، (د ن) بيروت ،1967، ج7،ص118

[33] حسن الوزان، المصدر السابق، ص 505.

[34] ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 403.

[35] الصديق حاج أحمد، التاريخ الثقافي لإقليم توات لإقليم توات، ط1، منشورات مديرية الثقافة لولاية أدرار، 2003، ص40.

[36] سالمي زينب، المرجع السابق، ص 39-40.

[37] عبد الله عباس، المرجع السابق، ص 76

[38] سالمي زينب، المرجع السابق، ص 67

[39] بوعزيز يحي، تاريخ افريقيا الغربية الإسلامية، دار هومة الجزائر، 2001، ص 195

[40] بول مارتي ،كنتة الشرقيون ،تر: محمد محمود ودادي ، مطبعة زيد ابن ثابت ، دمشق ،1985، ص 34

[41] للتعرف على حياة الشيخ المغيلي وجهوده الإصلاحية انظر مقلاتي عبد الله، موقف الشيخ المغيلي من يهود توات، مجله الحقيقة، تصدرها جامعه أدرار، العدد 6 (ماي 2005) ص ص 253-266

[42] حاج أحمد نور الدين، المنهج الدعوي للامام المغيلي من خلال الرسائل التي بعثها للملوك و الامراء والعلماء، رسالة ماجستير نوقشت بقسم أصول الدين، باتنة ،2011، ص64

[43] محمد بن عبد الكريم المغيلي ، مصباح الأرواح ،تح : رابح رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1968،ص ص 74-75

[44] انظر أ‘مال المهرجان الثقافي الأول للتعريف بتاريخ منطقة أدرار، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي ، م ف م ، وهران ، 1988،ص34

[45] R :Zarbojojeph : le monde noir africaines histoire et civilisation (se) paris ;1963 ;p121

[46] حاج أحمد نور الدين ، المرجع السابق ،ص 52

[47] عمار هلال، مقارنة بين أثار وجهود المغيلي وعثمان دان فوديو في العلم والدعوة الى اصلاح أحوال المسلمين، الملتقى الثقافي الأول محمد بن عبد الكريم المغيلي، مرجع سابق ،ص 92 ومابعدها

[48] عبد الله عباس، المرجع السابق، ص 87 ومابعدها

[49] عبد الرحمن السعيدي، تاريخ السودان، طبعة هوداس ، باريس ،1964،ص222

[50] مبارك جعفري، الحياة العلمية في إقليم توات وانعكاساتها جنوب الصحراء خلال القرن 12ه/18م رسالة ماجستر نوقشت بقسم التاريخ، جامعه الجزائر 2009، ص 222.

[51] أحمد جعفري، واقع المخطوطات بإقاليم توات الكبرى، مجلة النخلة تصدرها مدرسة الثقافة ولاية أدرار، عدد تجريبي، جويلية 2005، ص 26

[52] الشيخ محمد باي بلعالم ، قبيلة فلان في الماضي والحاضر ، مطبعة دار هومة ، الجزائر (د ت) من 103 وما بعدها

[53] عبد القادر زبادية ، مملكة سنغاي في عهد الاسقيين ، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1972، ص 33

[54] عمار هلال، الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب افريقيا السمراء، ط1، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، 1988، ص 74 وما بعدها

[55] محمد حوثية، الرجع السابق، ص180

[56] انظر مولاي التوهامي غيثاوي ، سلسلة النواة في ابراز شخصيات من علماء وصالحي إقليم توات ،ط1، الشركة الوطنية للنشر والاشهار ، الجزائر ، 2001 ،ج 1، ص 73

[57] محمد حوثية، المرجع السابق، ص 208

[58] حسن على إبراهيم الشيخي، تأثير الإسلام وثقافته في السودان الغربي لامن القرن الحادي عشر الميلادي حتى نهاية القرن السادس عشر ميلادي، رسالة دكتوراه، نوقشت بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعه أم درمان الإسلامية، 2009 ،ًص238.

[59]عزيز بطران، الشيخ المختار الكنتي الكبير ودوره في نشر الإسلام والطريقة القادرية في الصحراء وغرب افريقيا، مجلة البحوث التاريخية ، يصدرها مركز جهاد السنيين ضد الغزو الإيطالي السنة الثالثة ، العدد الثاني (1981) ،ص ص 314 315

[60] نفس المرجع، ص ص 318-319

[61] أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط1، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ،1999، ج3 ، ص212

[62] حسن على إبراهيم الشيخي، المرجع السابق، ص ص 238،237

[63] ادم عبد الله الالوزي، الإسلام في نيجيريا، ط3، د . د. ن، القاهرة، 1978، ص 92.

[64] محمد باي بلعالم ، المرجع نفسه ،ص 5

[65] عبد الرحمن زكي، امبراطورية الفولة: قبيلة فلان من خلال مؤلفات مقالات الباحثين وكتابات المؤرخين، منشورات جامعه أم درمان، السودان، ص271-178

[66] ملاي أحمد الطاهري، المرجع السابق، ص 85

[67] محمد باي بلعالم ، المرجع السابق ، ص ص42-48

[68] محمد باي بلعالم ، قبيلة فلان في الماضي والحاضر ومالها من العلوم والمعرفة والمأثر ، ، دار الامة ، الجزائر ، 2005 ص57.